آخــر الكـلام



غزو من نوع جـديد

رئيس التحرير

منذ أن عرفت الشعوب، التجارة الدولية وطرق القوافل، وسفن النقل التي تعبر البحار، اتسع نطاق الحضارة وتبادل الأفكار والمعارف والعلوم والخبرات، كما اتسع مجال التنافس والإسراع في التقدم البشري، وقد سار الجانب الحضاري الفكري إلى جانب الحضاري المادي، فلغة القوي كانت دائماً تتغلب على لغة الضعيف، وقد انتقل قصب السبق في هذا من أيدي

المصريين القدماء إلى السومريين إلى الآكاديين إلى البابليين ثم الإغريقيين فالرومان فالعرب، فسادت لغة كل من هذه الشعوب، تبعاً لقوتها وسطوتها، لغات عصرها وفرضت ثقافة أهلها على البلاد الأخرى.

من يتابع حيثيات هذا الأمر، يجد أن الصراع اللغوي لا يمكن أن يكون غزواً لغوياً فقط، لأن اللغات ألفاظ وعبارات، والألفاظ والعبارات تحمل الأفكار والآراء والعقائد، وهذا هو الميدان الأوسع للصراع الثقافي والحضاري، لأن الأفكار والآراء والعقائد هي التي تسيّر التاريخ.

منذ بدايات الاستعمار، تحول الانتشار الثقافي إلى عملية فرض فكري متفرع عن الغزو السياسي وملازم له، فأما في البلاد التي لم يكن لأهلها لغات كاملة مكتوبة، فقد سهل الأمر، وأصبحت الإسبانية والإنكليزية والبرتغالية والفرنسية لغات الحضارة في معظم البلاد التي احتلتها، ومع الغزو اللغوي سارت عملية غزو فكري، فاتخذ أهل هذه البلاد الآراء الفرنسية والأدب الفرنسي إلى جانب اللغة، وأصبح من يريد التعلم من أهل هذه البلاد ملزماً بدراسة لغة الغالبين، إذ لا لغة تصلح للكتابة أو التعبير عن الأفكار غيرها!؟

وقد بذل الإنكليز جهداً كبيراً في إحلال اللغة الإنكليزية محل الهندية ولغات شبه القارة الهندية الأخرى، ووفقوا في ذلك إلى حد كبير، فجعلوا التعليم كله إنكليزياً، ومع اللغة دخلت الأفكار والآراء والتقاليد والعادات، فتشبه الناس بالإنكليز في كل شيء حتى الشاي الذي يزرعونه، وأخذه عنهم الإنكليز، أخذوا يشربون على الطريقة الإنكليزية، في الساعة الخامسة؟!

وقد وفقت الفرنسية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر إلى غزو ميادين واسعة من ميادين الحضارة الإنسانية، فأصبحت لغة السياسة والمعاملات الدولية، ومع هذا انتشرت أشياء فرنسية أخرى كثيرة مثل: الأقمشة والفرش والعطور الفرنسية، ثم العلوم والتقنية والآداب وغيرها.. ولكن الإنكليزية لم تلبث أن تفوقت عليها في الميدان العالمي من جديد، بسبب الدور والهيمنة الذي احتلته الولايات المتحدة الأمريكية في السنوات الماضية وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية ونهاية الحرب الباردة وتطور المعلومات والتقانة، فوصلت إلى مستوى الإمبراطورية الأولى في العالم، فغلبت لغتها على ما عداها في الاستعمال الدولي الرسمي، وفي لغة الحاسوب و«الإنترنت» والثقافة، وأخذ العالم يتسابق في اختيار كل ما له علاقة بمظاهر الحضارة والفنون والثقافة الأمريكية، بصورة مقصودة أو غير مقصودة، وكان ما أطلق عليه اسم «الثقافة الكونية» أو ثقافة العولمة أو «أمركة الكون» أو «ثقافة القطب الواحد»..

باختصار شديد، لقد أصبح العالم كله، ضحية لهذا النظام الجديد، الذي تسيطر عليه بقوة الشركات العالمية المتعددة الجنسية وتهيمن عليه قوى كبرى لا هم لها سوى تحقيق مصالحها وأهدافها المغرضة، التي أقل ما يقال عنها بأنها «استعمار ولكن بأسلوب جديد».

☆ ☆ ☆

صدر حديثاً عن وزارة الثقافة